فيضان وطاعون بغداد ١٨٣٠-١٨٣١

وانعكاساته على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

كريـــم محمـد صالـــح محمد
أ.د.محمد كريم المشهداني
الجامعة العراقية/ كلية الآداب

فيضان وطاعون بغداد ١٨٣٠-١٨٣١ وانعكاساته على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

كريم محمد صالح محمد

أ.د.محمد كريم المشهداني

The Flood and Plague of Baghdad in 1830-1831 and its Reflection on the Social and Economic life

Abstract

The population of Iraq in general and Baghdadis have been subjected to a wave of natural disasters which caused the death of hundreds of people. Baghdad, for instance, has witnessed a number of plagues, but the most severe one was the one in Persian city of Tibriz in July, 1830 which then moved to Kirkuk and many infected people began to appear. After that the plague moved to Suleimanyah and then to Baghdad. The plague coincided with another disaster which is the flood of Baghdad in the same year forming a real human and environmental disaster on most of the Iraqi cities specially the city of Baghdad, leaving behind sociological, economic effects that would last for long time.

The study includes two inquiries, the first studies the consequences of the flood and plague on the social reality for the city of Baghdad, and its reflected on the other cities of Iraq during which many social conditions that were strange to the habitants of Baghdad.

The second inquiry studies the effect of these two disasters on the human activities in Baghdad, and accompanying famines in the form blow to the economic life. Trade was inflicted with a dangerous risk that the people of Baghdad were not able to surpass the crisis unless by the passage of two deades.

المقدمة:

تعرض سكان العراق بشكل عام، وبغداد بشكل خاص إلى موجة من الكوارث الطبيعية التي أودت بحياة المئات من سكانه، فقد شهدت بغداد عدة طواعين، غير أن أكثرها فتكاً وباء الطاعون الذي ظهر في مدينة تبريز الفارسية في تموز ١٨٣٠ وانتقل بعد شهرين إلى مدينة كركوك، وسرعان ما ظهرت العديد من الإصابات بين سكانها، وانتقل بعدها إلى السليمانية ومنها إلى بغداد، وتزامن هذا الوباء مع فيضان بغداد من العام نفسه، فشكلا كارثة بيئية وإنسانية على معظم مدن العراق لاسيما مدينة بغداد، مخلفاً ورائه آثاراً اجتماعية واقتصادية ظلت آثارها باقية لمدة طويلة من الزمن.

تضمنت الدراسة مبحثان، الأول تناول تداعيات الفيضان والطاعون على الواقع الاجتماعي لسكان المدينة، وانعكاساته على باقي مدن العراق الأخرى برزت في اثناءها حالات اجتماعية غريبة التي لم

يألفها سكان بغداد، وبعيدة عن عاداتهم وتقاليدهم الأصيلة، فضلاً عن الآثار السلبية على مستوى التفكير والسلوك لدى أهالي بغداد.

في حين درس المبحث الثاني آثار هاتان الكارثتان على النشاط الاقتصادي في إيالة بغداد وما صاحبها من مجاعات شكلت ضربة قاصمة للحياة الاقتصادية، فقد أصيبت التجارة بكساد خطير لم يكن يوسع أهل العراق من تجاوز هذه الأزمة الاقتصادية إلا بعد مرور ما يربو على عقدين من الزمن.

اعتمد الباحث على مصادر ومراجع عديدة في مقدمتها (تاريخ العراق بين احتلالين) لمؤلفه عباس العزاوي، الذي يعد من المصادر التي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه. وقد غطى الكثير من جوانب البحث، فضلاً عن الكتب المعربة ومنها كتاب (دوحة الوزراء في وقائع بغداد الزوراء) لرسول الكركولي ترجمة موسى كاظم نورس، إذ عاصر المؤلف الحكم المملوكي في العراق، وألف كتابه بإيعاز من داود باشا، ومن المصادر الأخرى التي اعتمدها الباحث كتب الرحلات أهمها (رحلة فريزر إلى بغداد ١٨٣٨) جيمس بيلي فريزر، وهذا الكتاب يعد خير من وصف الطاعون والفيضان عام ١٨٣٠-١٨٣١.

كما اعتمد الباحث على مجموعة من الأطاريح والرسائل الجامعية التي أغنت البحث بكثير من المعلومات، فضلاً عن عدد من البحوث والدراسات التي أفادت الباحث في أعداد هذه الدراسة.

المبحث الأول

تداعيات الفيضان والطاعون على الواقع الاجتماعي

كان لفيضان وطاعون بغداد عام ١٨٣٠ و١٨٣١ انعكاسات على الأوضاع الاجتماعية بشكل واضح على سكان مدينة بغداد وباقي مدن العراق الأخرى، لذلك ظهرت حالات غريبة بعيدة عن عاداتهم وتقاليدهم الأصيلة، إذ أغلب السكان بمختلف طوائفهم ملتزمون بمبادئهم وقيمهم الدينية السامية، وقد وصف عالم الأوبئة الفرنسي (ثولوزون) مصاعب سكان بغداد الطويلة مع هذا الوباء بأنهم سكان السكرافيولا (تورماث الغدد اللمفاوية) بشكل واضح(١).

لقد اتسم أهل بغداد بالشمائل الجميلة والخصال الكريمة والسجايا النبيلة، ولعل من أكثر الإشارات تفصيلاً عن الخصال التي يتمتع بها سكان العراق ما ذكره الآباء الكرمليون في فارس الذين تحدثوا عن أخلاق سكان بغداد بقوله: "إن البغداديين- بدون استثناء- هم من أكثر الذين قابلتهم تحضراً في البلاد الإسلامية، فهم ميالون إلى إظهار تأدبهم للأجانب، وخاصة من أصحاب الديانات الأخرى، ولهذا فعندما يمر المرء في شوارع بغداد فأنه يلقى التحايا والانحناءات حتى من قبل أكثر الطبقات الراقية"(٢).

وبسبب تعاقب الفيضانات والأوبئة بشكل مستمر، فقد تولد لدى السكان شعور نفسي كانت له انعكاساته على التركيبة السكانية من جهة وما تركه من آثار على مستوى التفكير وتركت تداعيات خطيرة على العلاقات العائلية والسلوك الفردي والعادات والتقاليد والمعتقدات الاجتماعية والثقافية، لدى سكان المدينة، فكان سكانها يعيشون في حالة من الدهشة عندما يرون ان هذه الأوبئة وما يصاحبها من فيضانات مدمرة، تؤدي بالتالي إلى توقف عجلة الحياة بشكل مذهل، إذ تقفل المحلات أبوابها، وتتحول البيوت والمدن إلى مناطق أشباح. لا يمكن العيش به بسبب تحولها إلى مناطق موبوءة تضطر الحكومة إلى نقلهم لمناطق أخرى(٣)، ووفق هذه المتغيرات يمكننا ان نستنتج أن هذه الأوبئة كانت عاملاً مساعداً لبروز مظاهر الازدواج في الشخصية، فعلى الرغم من ان أغلب سكان المدن لديهم مجموعة من العادات التي يتباهى بها أهل المدينة في بغداد مثل الكبرياء والتفاخر بالعصبية والثأر، إلا أننا نجد أن هذه المظاهر سرعان ما تتغير حالما يجتاحهم وباء، فتظهر حالة التناقض الذي كانوا يتظاهرون به، فيميلون باتجاه الحزن الشديد والايلام من الزمان، وهنا يصف لنا علي الوردي هذه الشخصية عند أهل المدن بأنها: صارت بطابعين مختلفين، أحدهما يميل نحو التألم والخضوع والشكوى، والآخر يميل نحو التحدي والمغالبة"(٤).

كما ترك وباء الطاعون بصمته كمرض قاتل لا يرحم في الذاكرة الشعبية لأهل العراق، إذ بقيت نتائج الطاعون المريعة أثراً راسخاً في أذهان الأجيال البغدادية حتى النصف الأول من القرن العشرين(٥).

وعلى الرغم من أن الطاعون والفيضان لعام ١٨٣٠-١٨٣١ كان أحد الأسباب المباشرة التي أثرت على الحياة الاجتماعية في بغداد بمختلف مجالاتها، إلا أن هناك عوامل أخرى ساعدت على أن يكون تأثيرها أكبر أدت بالتالي إلى حدوث متغيرات جذرية في ديمغرافية بغداد، القت بظلالها على واقع الحياة السكاني ونشاطاته(٦).

ومن هذه العوامل فأنه وعلى الرغم من تكرار حوادث الطواعين والفيضانات والأوبئة الأخرى، إلا أننا لم نجد أي سعي أو مجهود حكومي يستبق الأحداث ويتخذ على ضوئها الإجراءات الاحترازية التي من خلالها إمكانية تفادي آثار هذه الفيضانات وما تزامن معها من أوبئة، وعليه فأن انعدام الخدمات وسوء التخطيط العمراني للمدينة الذي تمثل بشوارعها الضيقة التي تتخلل أحيائها، وبيوتها الصغيرة القريبة من بعضها جعل فرصة انتقال الأمراض متوفرة، فضلاً عن أن هذا التقارب بين البيوتات وضيق شوارعها يحجب أشعة الشمس من الوصول إليها، فتجعلها أكثر عرضة لظهور مثل تلك الأمراض(٧).

كما أن انعدام الخدمات البلدية التي كانت عاملاً آخر في تفاقم الحالة الصحية للسكان، فقد أجمع أغلب الرحالة الذين زاروا بغداد قبل وأثناء عهد داود باشا إذ ذكروا ان شوارع بغداد ضيقة بشكل كبير

وغير مبلطة وفي نفس الوقت ملتوية وأكثر تعرجاً وتنقصها العديد من المؤسسات التي تأخذ على عاتقها مسؤولية تقديم الخدمات للسكان، وأن المرافق الموجودة لا تتناسب وشهرتها التاريخية، فضلاً عن أن طرقها قذرة وموحلة لاسيما في فصل الشتاء وتعج بالتراب صيفاً(٨).

ومن الجدير بالذكر أن هذه النواحي المهمة المذكورة أعلاه، إلا وهي حالة الشوارع العامة والأزقة فيها، إذ ليس هناك ما يشير في فترة موضوع البحث إلى وجود دائرة خاصة -كالبلدية- مثلاً تهتم بالخدمات الاجتماعية للسكان(٩)، وعلى ما يبدو ان معظم الخدمات المدنية في مدينة بغداد كانت تدار من قبل حكوماتها المحلية، المتمثلة بالولاة والموظفين الحكوميين مباشرة، وان قسماً آخر من تلك الخدمات كانت تتم بمساهمة أعيان المدينة وبعض الميسورين(١٠).

أما العامل الآخر الذي كان أساسياً في نقل الأوبئة وانتشارها بشكل سريع، هي طريقة نقل مياه الشرب إلى محلات بغداد وسكانها، إذ كانت هذه العملية تتم بطريقتين أحداهما رفع المياه من نهر دجلة، وثانيهما نقلها إلى سكان المدينة بأساليب مختلفة، فبالنسبة للطريقة الأولى، فأنها كانت قائمة على رفع المياه بواسطة الدواليب من النهر، إلى قنوات مطلية بالقار، مرفوعة على عقود عالية، فتجري في الدروب والمحال بصورة منحدرة حتى تصل إلى المواضع المهمة، أو الأكثر ازدحاماً في السكن، فتتفرع منها في قنوات أخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك(١١).

أما الطريقة الثانية لنقل المياه إلى بغداد، فكانت تجري بواسطة السقائين الذين ينقلون الماء إلى أحواض كبيرة كل يوم، لقاء أجر معلوم، وكانت هناك سقايات عامة موزعة في إرجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان طيلة اليوم، وقد كان الماء يجلب من نهر دجلة في أزقة (قرب) كبيرة من الجلد على ظهور الثيران والجياد(١٢)، فضلاً عن أن عدد من السكان قد اعتمد على مياه الآبار التي انتشرت في بغداد إلى حد كبير(١٣). وكل هذه الأساليب البدائية كانت تفتقر إلى الحد الأدنى من الشروط الصحية الواجب توفرها لحماية السكان من انتقال الأمراض والأوبئة عن طريقها(١٤)، على العكس من سراي الباشا المملوكي، فقد كان فسيحاً ويحوي في داخله على منازل جميلة والبذخ الظاهر، فضلاً عن أن داود باشا قام بإصلاح السراي سنة ١٨٢٠، وقد شكل هذا التفاوت بين الطبقة الحاكمة والطبقة العامة من السكان الذين يشكلون الغالبية العظمى عاملاً في زيادة مأساتهم الناتجة عن طاعون وفيضان عام ١٨٣٠-١٨٣١(١٥).

لذلك فأن الخدمات التي كانت تقدم على الرغم من بساطتها، قد انعدمت تماماً وتوقفت جميعها عن العمل، لأن الموت قد هاجم الموظفين وأفراد الجيش الذين بلغ تعداده في عام ١٨٢٦ (٥٠٠٠-٦٠٠٠) جندي وكانوا مدربين تدريباً حسناً قضى عليهم الطاعون وخدم الديوان، فقضى عليهم كقضائه

على أعداد كثيرة من الناس، فأصبح داود باشا في حيرة من أمره، ولم يكن أحد هناك يأخذ بأوامره، وطلب بأن يأتوا إليه بالسفن لنقل السكان إلى أماكن أكثر أمناً، فلم تحضر له أية سفينة(١٦).

لقد ظهرت آثار الأوبئة على سكان مدينة بغداد وباقي مدن العراق الكبيرة إذ برزت ظاهرة هروب السكان من منازلهم وهجرة عدداً منهم، وقد تركت لنا هذه الظاهرة موروثاً شعبياً فيه الكثير من الألم والحزن، وقد انعكس ذلك بشكل واضح على مختلف نشاطاتهم بسبب الكوارث الطبيعية التي ألمت بالعراق، وقد عُد هذا الفيضان وما صاحبه من وباء الطاعون من أعظم الكوارث وأشدها فتكاً وتأثيراً وقد أجهز على معالم الحياة فغي بغداد، حتى أغرقت قسماً كبيراً منها، وهدمت معظم بيوتها وأبنيتها، فضلاً عن قضائها على أكثر من ثلثي سكان بغداد، فمن أصل مائة وخمسون ألف نسمة، لم يبق على قيد الحياة إلا خمسون ألف(١٧).

ولربما أن أحد أسباب تناقص أعداد السكان لهذا الشكل يعود إلى بعض الإجراءات التي قامت بها حكومة بغداد عندما منعت الناس من الفرار في بادئ الأمر من المناطق الموبوءة والفرار منها إلى القرى والأرياف، كما أن الكثير من السكان استسلموا لقدرهم بسبب جهلهم بالاحتياطات الواجب اتخاذها لمواجهة الوباء والفيضان، فضلاً عن انتشار اللصوص في مختلف مداخل بغداد كان مانعاً بعدم فرار السكان إلى مناطق آمنة، وبسبب تأثيرها المميت وأخبارها المفزعة لا زال أهالي بغداد يرددون أخبارها ويشيرون إليها في أحاديثهم ومناسباتهم فيسمونها بـ(طواعين بغداد) (١٨).

كان لهذه الكوارث أثراً اجتماعياً ملموساً على سكان بغداد، وأخذت طبائعهم تميل باتجاه الكآبة والمآسي، وهذه الصفات الدخيلة التي فرضتها الأحداث أخذت حيزاً كبيراً من صفاتهم الحميدة التي كانوا يتصفون بها، فهم دائماً مؤديون عقلاء محسنون إلى الأجانب(١٩). وهذا ما أكده الرحالة الفرنسي أوليفيه الذي اعتقد أن سكان بغداد أكثر حلماً في طباعهم من سائر سكان المدن الشرقية، فتعصبهم الديني لا يخلو من تسامح ولم يؤد الحسد عندهم إلى ظلم كبير، وكان إشراف البلدة أكثر تأدياً وثقافة(٢٠).

كذلك ان المدينة (بغداد) كانت لمدة طويلة مركزاً للخلافة وعاصمة لأعظم إمبراطورية ومركزاً للإسلام وملتقى العلماء والشعراء والأدباء وقد حافظت على ما تبقى لها من ذوق وأدب وميل إلى البهجة التي تتميز بها عن باقي العواصم الأخرى، وفي ذلك الوقت ساد الأمن وازدهرت التجارة ولم يؤذ أحداً من الطوائف غير المساحة، وكانت بغداد خلال حكم داود باشا أغنى ولاية بعد مصر، وعدت من بين مدن الإمبراطورية العثمانية الكبرى(٢١).

لذلك نجد من الطبيعي ان تتغير أوضاعهم وطبعائهم بسبب ما خلفه الوباء والفيضان من مجاعة وقحط، اضطرهم فيما بعد إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات التي تتناسب والمتغيرات التي طرأت على حياتهم، فضلاً عن أن هجرة عدد من السكان وفقدان الكثير منهم بسبب هذا الفيضان والوباء دفع بالعديد

من سكان القرى والأرياف المحيطة ببغداد للهجرة إلى بغداد، وقد كانت هذه الهجرات عبارة عن مجاميع قبلية لها عاداتها وتقاليدها الخاصة بها، أثرت بالتالي على ثقافة سكان بغداد، خاصة بعد أن أخذت هذه المجاميع تتقوقع في محلات أو عقود بأسماء الأقوام والعشائر التي تسكنها عوضت عن النقص السكاني الذي حصل بسبب الوباء والفيضان، وقد كانت هذه المجاميع السكانية منفصلة عن بعضها البعض بالجوانب الاجتماعية واختلاف التقاليد وتغير العادات التي تحتاج إلى فترة طويلة للانصهار في ثقافة واحدة، كل ذلك أدى إلى تفكك الروابط الاجتماعية بينهم وبالتالي إلى عدم الانسجام بين أبناء المجتمع نفسه بسبب تنوع الثقافات والمبادئ التي يقوم عليها وينهض على دعائمها، مما خلق حالة من التباين أحياناً شكلت خطراً على الوحدة الاجتماعية وبالأخص الثقافية منها(٢٢).

وعلى الرغم من هجمة الوباء والفيضان على سكان بغداد، إلا أنهم حافظوا على الجوانب الاجتماعية والإنسانية، ففي كل وباء يجتاح العراق كان الناس يهتمون اهتماماً كبيراً بغسل الميت وتكفينه، وأجراء كل ما أمرت به الشريعة الإسلامية في هذا الشأن، وأن كان بعضهم غير ملتزم بأوامر الشريعة في حياتهم العملية اليومية، لكنهم عند الموت حرصوا كل الحرص على اتباع تعاليم الشريعة وان أدت عملية غسل الميت في وقت الوباء قد زادت من انتشار عدواه بينهم(٢٣).

والغريب في الأمر أن الكثير من الناس سارع في شراء مواد التكفين لأنفسهم وأفراد عائلاتهم حالما تصلهم أنباء انتشار الوباء استعداداً للموت، إذ كانوا يخافون أن يدفنوا من غير ذلك، كونهم يتصورون ان الله سيرميهم في نار جهنم إذا وجدوهم غير مكفنين، فازداد الطلب على مواد التكفين في الأيام الأولى من انتشار الطاعون في بغداد، فارتفعت أسعارها ارتفاعاً كبيراً حتى وصلت في بعض الأحيان إلى أربعة أضعاف سعرها الأصلي، كذلك اشتد الطلب على الماء أيضاً لحاجة الناس في غسل الموتى، فاستغل السقائين ذلك، مما اضطر بعض الناس الذهاب إلى النهر بأنفسهم من أجل جلب الماء لغسل الموتى(٢٤).

وبعد أن زال خطر الطاعون والفيضان في الأسبوع الأول من أيار ١٨٣١ عن المدينة تجمع الأهالي في أماكن واحدة خشية عليهم من الإصابة بالمرض، ولكن أوضاع المدينة كانت مزرية للغاية، بعد أن ملئت الشوارع بالجثث تغطيها أوحال مياه الفيضان. ونظراً للإجراءات التي اتخذتها الحكومة وتعاون الأهالي، فقد بدأت أحوال الناس تتحسن نسبياً داخل المدينة أواخر هذا الشهر المذكور، ورفعت الجثث من الشوارع ودفن البعض والقي البعض الآخر في النهر، وتم جمع الحيوانات الهاربة، وبيعت المواد الغذائية في أسواق المدينة، وبدأ الناس يتوافدون إلى الجوامع بعد أن سمعت أصوات المؤذنين في أرجاء بغداد(٢٥).

قام داود باشا بعد تماثله للشفاء من مرض الطاعون بتعيين مجموعة من الجنود لتنظيف بغداد، ورصد مبلغاً من المال لنقل الجثث من كل أحياء بغداد، بعد أن بلغ تعفن الهواء حداً لا يطاق، فضلاً عن أن الباشا أراد من خلال ذلك إنهاء هذه المظاهر المأساوية التي عطلت الحياة، وخلقت فراغاً أمنياً كبيراً، استغلته المجاميع التي كانت تتحين الفرص في مثل هكذا ظروف، لتحقيق مأربها، كما ان داود باشا أراد كذلك أن ينهي الصورة المروعة التي كانت تدفن فيها الجثث، إذا كانت تُشد من أرجلها بالحبال وتربط بذيول الحيوانات السائبة التي لم يكن لها مالك، فتجرها الحيوانات وهي مقلوبة على وجوهها حتى شاطئ النهر في منظر لم يألفه الناس من قبل(٢٦).

وعلى الرغم من تأثر المؤسسات الدينية مثل المساجد والتكايا وقبور الصالحين والأولياء، والتي نالت قدسية كبيرة في نفوس الطوائف الإسلامية المختلفة، بسبب الفيضان ومنها الصحن الكاظمي الشريف، إلا أنها ظلت توزع المعونات وإطعام الفقراء، خاصة بعد بروز ظاهرة وقف(٢٧) الأراضي والبيوت والدكاكين التي خصص ريعها لإطعام الفقراء ومساعدتهم عند حدوث الكوارث الطبيعية، وقد استمر توزيع الطعام والاحتياجات الضرورية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وجامع الإمام موسى الكاظم، وجامع الإمام أبو حنيفة، وجامع الشيخ معروف الكرخي(٢٨)، ومساهمة من داود باشا فقد أوقف عدداً من الوقفيات ومنها التكية الخالدية ببغداد(٢٩).

وحذا حذوهم أهل الخير والطبقة الموسرة من السكان في جمع التبرعات والعمل على مساعدة الفقراء والتخفيف عن كاهلهم. كما ان بعض التجار أقدم على تخفيض أسعار المواد الغذائية وإشاعة روح التعاون والمساعدة بين أبناء الولايات العراقية ولمختلف شرائح المجتمع من أجل تجاوز الأزمات والخروج منها، ومن أبرز هؤلاء الشيخ جابر بن مرداو شيخ المحمرة الذي بادر إلى إيواء الكثير من سكان بغداد وإطعامهم من ماله الخاص(٣٠)، لاسيما بعد أن وصلت آثار الطاعون والفيضان إلى مدينتي البصرة والمحمرة، فيما بادر بعد ملاكي الأراضي الزراعية الواسعة خلال فترة الطاعون والفيضان بتوزيع كميات من الحبوب إلى من دمرت أراضيهم على أن يتم إرجاعها في السنة القادمة بنفس الكمية دون زيادة(٣١).

أدت المنشآت الدينية دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية بسبب أنها مراكز للاجتماعات العامة في الأعياد والمناسبات الاجتماعية. فأصبحت مركزاً لإيواء السكان خلال فترة الأزمات والكوارث الطبيعية، وان كان لجوء الناس إلى هذه المراكز الدينية بشكل فطري، ذلك لأنهم يشعرون بالأمان أكثر، فضلاً عن أنها أصبحت شبيهة بغرفة عمليات الموثوق بها لإدارة الأزمات لما لها من دور معنوي وديني(٣٢).

ونتيجة للأضرار الجسيمة التي خلفها الفيضان والطاعون فقد قام السكان بجملة من الإجراءات والتصدي لتلك الموجات الشديدة التي كانت قد ضربت ولاية بغداد والموصل في أغلب الأحيان، في حين كانت هذه الموجات أقل وطأة على ولاية البصرة، بسبب توفر المنتوجات الزراعية والثروات الطبيعية التي

مكنتهم من تجاوز الأزمات(٣٣). في حين انفرد سكان الموصل بميزة حسن التدبير في استخدام ما متوفر لديهم من مواد غذائية، إذ كانوا يحتاطون لمثل هكذا أزمات، ومن الجدير بالذكر أن السكان في أثناء موجات القحط والكوارث بتعاون بعضهم مع البعض الآخر بالعمل بمبدأ التكافل الاجتماعي والتعاون فيما بينهم، وقد برزت شخصيات كان لها دور في وقف بعض أملاكها بينما سعى آخرون إلى تأسيس الجمعيات الخيرية فيما بعد(٣٤).

كما ظهرت آثار الوباء والفيضان على سكان بغداد، إلا أنها هذه المرة بالاتجاه الإيجابي، إذ أدركوا أهمية المحافظة على الصحة العامة، وعلموا أن كثرة انتشار الأمراض والأوبئة معناه تخلف المجتمع، فيتطلب ذلك الحيطة والحذر من هذه الأوبئة وما يصاحبها من فيضانات، فقاموا بعمليات التنظيف اليومي لبيوتهم والأزقة التي يعيشون فيها، ففي بغداد وباقي المدن العراقية الأخرى الكبيرة، كان اهتمام سكانها المبالغ في النظافة إلى درجة اقتربت بهم حد الوسوسة، كون ان مدينة بغداد قد تعرضت إلى طواعين وأوبئة كثيرة راح ضحيتها المئات من الأشخاص(٣٥).

وعلى أثرها شهدت بغداد ومدن العراق الأخرى موجة من ارتفاع في أسعار المواد الغذائية بعد انتشار المجاعة بين سكان المدينة، سببها تفشي الوباء بشكل مخيف وما رافقه من فيضان مدمر ضرب بغداد ومدن العراق الأخرى. وقد سيطر الخوف والهلع على الناجين من الطاعون عندما لم يجدوا الطعام وما يسدون به رمقهم، فأصبح الحصول على الطعام أمر بالغ الصعوبة، حتى أن البعض من وجهاء بغداد وسادتهم أصبحوا يستجدون بعض المواد الغذائية(٣٦).

ولشدة ما لحق بهم من العازة والفقر استنجد سكان بغداد بالسلطات العثمانية في استانبول لتمدهم بالمساعدات الغذائية والحاجات الأساسية للسكان، حيث وقع رجال الدين والمختارون مضبطة التماس إلى السلطان محمود الثاني طالبين منه المساعدة وإسعاف ما تبقى من أهالي بغداد، وقد تم توضيح جميع الأوضاع المتردية التي عاشتها أيالة بغداد بعد الوباء والفيضان وما خلفه من غلاء ومجاعة، فضلاً عن شرح الأوضاع السياسية وأعمال النهب والسلب التي قامت بها العصابات التي انطلقت من المناطق المجاورة إلى بغداد ومما زاد من معاناة الناس والحصار المفروض على المدينة(٣٧) من قبل القوات العثمانية بقيادة علي رضا باشا اللاظ(٣٨)، مطالبين العفو والأمان من السلطان(٣٩)، غير أن الذي حصل ان العثمانيين استثمروا أحداث الطاعون والفيضان لتحقيق أهدافهم في السيطرة على العراق، فأدى كل ذلك إلى فقدان مدينة بغداد قدرتها في تهيئة القوة المطلوبة للدفاع عنها، فضلاً عن الآثار البشرية والمادية المتردية التي تركها الفيضان على المدينة وسكانها(٤٠).

أحدث وباء الطاعون وفيضان دجلة ١٨٣٠-١٨٣١ تحولات جذرية في الهرم الاجتماعي، عندما قضى على الكثير من سكانه بلا تمييز، فعلى الرغم من عدم توفر النظافة الصحية في الأفراد، فأن الوباء

والفيضان لم يستثني أحداً من هجماتها لأي اعتبار له صلة بالمكانة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، فقد خضع كل من الحكام ورعاياهم الأغنياء والفقراء بمختلف الأعمار بذات المصير، ليشمل كل ألوان الطيف الاجتماعي العراقي(٤١).

المبحث الثاني

الآثار الاقتصادية

تأثرت الحياة الاقتصادية في الأيالات العراقية وبالأخص أيالة بغداد وذلك لكثرة تعرض البلاد لموجات الأوبئة الفتاكة والفيضانات المدمرة، وقد كان تأثير الطاعون الذي تزامن مع فيضان دجلة عام ١٨٣٠، فكان ذلك من أقسى الكوارث الطبيعية التي شهدتها بغداد وما صاحبها من مجاعات، فقد كانت ذات أثر واضح على النشاطات الاقتصادية للمدن العراقية الأخرى، ذلك لأنها كانت تقضي في كثير من الأحيان على ما يبنيه الإنسان لمدة طويلة من الزمن، وقد كان تاريخ العراق مليء في هذا العهد بمثل هذه الكوارث التي أثرت بشكل كبير على الاقتصاد العراقي سلباً فتدهور بشكل لم يكن معروفاً من قبل(٤٢). فقد وجه ضربة قاصمة لقواه الإنتاجية، وغلقت الدور وخلت الحوانيت والمصانع، وأصيبت التجارة بكساد خطير، ولم يكن في وسع أهل العراق استعادة نشاطهم الاقتصادي، إلا بعد مرور ما يربو على عشرين عاماً كي يتخلصوا من آثار الطاعون(٤٣).

وبسبب تلك الكوارث وتناقص عدد السكان لمدينة بغداد فقد انقرضت عائلات حرفية ماهرة، ولعل الاستشهاد بما ذكره فريزر، عن آثار هذه الواقعة تعطينا انطباعاً واضحاً عنها فذكر:

"ومن بين خطوط الأسواق الطويلة [في بغداد] أصاب الخراب العام عدداً غير يسير منها، وقد مرت مدة طويلة قبل عودة الأسواق التي بقيت مهدمة إلى الامتلاء، والدكاكين التي فتح أبوابها من جديد بمقدار يعتد به، فأن معظم التجار وجميع الصناع وأرباب الحرف تقريباً، فقد أتى عليهم الموت وأزالهم من الوجود، وإنك في مثل هذا اليوم [أي عام ١٨٣٤] لو أردت أن تحصل على بعض الحاجات المصنوعة التي كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد يقال لك آه، أن ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لأن جميع من كانوا مختصين بصنعة قد ماتوا، ولذلك انمحت من هنا صناعات معروفة بأكملها"(٤٤).

وبسبب هذه الكوارث، فقد تكبدت خزينة الباشا خسائر كبيرة، وذلك بعد ان توقفت تجارة الترانسيت، لكون ان بغداد كانت مركز هذه التجارة على أساس أنها نقطة تجمع وتوزيع هذه التجارة والتجارة الخارجية، فضلاً عن أننا نلاحظ ان سلع تجارة الواردات لمدينة بغداد أما أنها كانت عبارة عن بضائع مرور فقط إلى البلدان المجاورة، أو أنها المركز الرئيسي لتوزيع تجارة الاستيراد الخارجية، وقد اكتسبت بغداد هذه الصفة منذ القرن السادس عشر، وقد نعتها الرحالة الأوربيون بهذه الصفة، وظلت محافظة عليها لفترة امتدت حتى فيضان عام ١٨٣٠(٤٥).

كما كان لهذه الكوارث تأثيراً كبيراً ومباشراً على سير الحياة الاقتصادية في العراق، التي كانت تعتمد على المبادلات التجارية بين الايالات بعضها مع البعض الآخر، أو من خلال حركة التجارة مع باقي الولايات العثمانية الأخرى في الشام والأناضول ومصر، إذ كانت الحركة التجارية في عهد داود باشا قد شهدت نشاطاً ملموساً وواضحاً قياساً لما كانت عليه في عهد الولاة الذين سبقوه بالحكم، فضلاً عن وجود العديد من القوافل التجارية التي تدخل إلى بغداد من التبت وقندهار وإيران ومحملة بمختلف السلع بما فيها الفواكه والتبغ، وكانت بعض تلك السلع يتم تصديرها إلى خارج ولاية بغداد بعد شرائها من تلك القوافل التجارية ومنها على سبيل المثال التبغ الذي يصدر إلى حلب ودمشق، واستانبول(٤٦).

كذلك تعطلت عملية تصدير التبغ الذي كان يزرع في أطراف بغداد، بعد أن أجتاحت مياه الفيضان هذه الأراضي وحولتها إلى مستنقعات كبيرة لم تعد صالحة للزراعة، وعلى الرغم من أنه كان يُصدر بكميات قليلة لأن جودته أقل بكثير من التبغ الأجنبي الذي يتم شرائه من القوافل التجارية، إلا أنه مع ذلك فأنه كان يشكل أحد المحاصيل التي نافست المنتوج الأجنبي، فضلاً عن أن هناك العديد من القوافل التجارية التي تأتي إلى بغداد من زهاب والسليمانية وكركوك وديار بكر وحلب وأورقة وماردين، وهي ما تلتقي عادةً في بغداد وتتم عمليات التبادل التجاري بين تجارها وبين التجار المحليين إلا أنها وبسبب تلك الأوضاع فقد توقفت ولم يعد بمقدورها العمل والتواصل مع تجار بغداد بسبب هلاك بعضهم، في حين قرر البعض الفرار خارج بغداد(٤٧).

كما توقفت عملية التبادل التجاري بين القوافل القادمة من الشام والمحملة بسلع جديدة والتي تلاقي طلباً عليها في بغداد من قبل الميسورين، لكون ان مصدر صناعة بعضها في أوربا وتنتقل إلى الشام بواسطة الطرق البحرية ومنها إلى بغداد، علماً أن قيمة منتجات الولايات العراقية في العقد الثاني من القرن التاسع عشر وصل إلى (٣٥٠,٠٠٠) قرش، على الرغم من عدم اهتمام الولاة الذين سبقوا داود باشا بوسائل تنمية الإنتاج الاقتصادي(٤٨).

وانحسرت السياحة الدينية التي كانت مورداً رئيسياً للدخل الوطني العراقي، ممثلة بالمراقد الدينية في النجف وكربلاء وبغداد، وقد تضاءل عدد الوافدين (تجار وزائرين) بسبب الفيضان والطاعون، في حين كان يقدر عدد الوافدين إلى العراق سنوياً قبل الحادثين من (١٢-١٥) ألف شخص سنوياً، فشكلت مجيء أعداد هؤلاء الزوار عاملاً من عوامل انتعاش التجارة في العراق، فضلاً عن أنه شكل عاملاً من العوامل التي ترفع من كمية النقد في العراق(٤٩).

تأثرت الحياة الاقتصادية كذلك في بغداد بسبب الطاعون والفيضان، وتركت هذه الكوارث أثرها السيئ على معظم القطاعات التجارية فادت إلى فتور حركة التجارة بصورة خاصة، وباءت معظم

محاولات داود باشا بالفشل لتأمين الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية، بعد أن عمل على شق نهراً بين دجلة والفرات(٥٠)، وحدَّ من تجاوزات عشائر عفك التي حاولت العبث بالملاحة النهرية، غير أن اللصوص وقطاع الطرق تمكنوا من السيطرة على مخارج المدينة بعد أن طرد أفراد القبائل الحراس الذين كلفهم داود باشا للمحافظة على أمن الملاحة في مناطق معينة فتراجعت التجارة التي كانت تدر مردودات مالية شكلت زيادة في الدخل الوطني للبلاد(٥١)، إذ قدرت الرسوم على التجارة في بغداد بمليون قرش، وفي البصرة قدرت بمليون ونصف المليون قرش سنوياً(٥٢).

وبعد أن استبيحت مدينة بغداد بعد انحسار الفيضان لأعمال السلب والنهب، كان منظر الأسواق مؤلماً ومثيراً للحزن، لما حلَّ بها من دمار وأصبحت الحجر والدكاكين خاوية ومفتوحة على مصراعيها، بعد أن جمع اللصوص والسراق الأشياء الثمينة وتركوا الأشياء التي لا تستحق الأخذ، ولم تسلم من السرقة حتى أبوابها وشبابيكها، وكان أكثر الأسواق التي تأثرت بعمليات السلب والنهب سوق السراجين(٥٣)، فضلاً عن الأسواق الأخرى التي شيدها داود باشا والتي تمتد لمسافة غير يسيرة، وذات أطواق عالية، وشكلت في وقتها أحد المرافق المهمة التي ساعدت على ازدهار التجارة في مدينة بغداد(٥٤).

وقد اتسمت هذه الأسواق في عهد داود باشا بالنشاط المتزايد وبالذات قبل الفيضان والطاعون، وكانت غالباً قريبة من سراي الحكم، وقد تأثرت هذه الأسواق بشكل وأضح نتيجة ما حصل ببغداد من فيضان مدمر، ومن أهم هذه الأسواق التي يجتاحها الفيضان سوق الجيوقچية وسوق التوتنچية (باعة التبغ) وسوق البزازين وسوق الخياطين، وقد كانت هذه الأسواق موزعة حوالي الميدان والسراي، وتمتد جنوباً حتى وسط المدينة، كما أن هذه المناطق كانت مكتظة بخانات التجار والمقاهي والجوامع وباعة الكتب والوراقين(٥٥).

إن أسواق بغداد التي كانت مكتظة بالناس والبضائع قد اجتاحها الطاعون والفيضان في آنٍ واحد ليحولها إلى انقاض مهدمة أدى إلى شلل الحياة في بغداد، لاسيما ان العديد من التجار قد قضى نحبهم ومنهم من اضطر للهجرة إلى الدول المجاورة ومنها الكويت، إذ لم تعد الأجواء ملائمة لممارسة نشاطاتهم التجارية، بسبب ما ألمَّ ببغداد بأحداث ليس من السهولة السيطرة عليها وإعادة الأوضاع على ما كانت عليه قبل الفيضان(٥٦).

لذلك نجد أن حادثي الطاعون والفيضان التي تعرضت له مدينة بغداد قد أتت على كثير من أسواقها، فتتناقص عدد الحوانيت آنذاك، فذكر فريزر: "أما الدكاكين نفسها فهي دكاكين رثة، غير مرممة في كثير من الحالات، وكثير منها فارغ غير مشغل"(٥٧). بعد أن كانت أسواق بغداد مكتظة بالناس دائماً ومليئة دكاكينها التي بلغت أكثر من (٦٠٠٠) ست آلاف دكان بالسلع المختلفة التي توفر لزبائنها كل شيء، بحيث يخرج المرء منها وهو مقرور البال بسبب تنوع البضائع المعروفة(٥٨).

أما النظام المالي والمصرفي الذي ارتبط وجوده بوجود الأسواق، فقد ضعف عمله جراء الأحداث التي ألمت ببغداد، وقد تأثر هذا القطاع كثيراً لأن معظم الصرافين هم من اليهود الذين كانوا يقطنون محلة اليهود التي كانت أول محلة يحتاجها الطاعون ومن ثم الفيضان، مما أدى إلى فقدان الكثير منهم، ومن ضمنهم الصرافين الذين شكلوا أحد الدعائم الأساسية للنظام المصرفي في بغداد، لما يتمتعون به من خبرة ودهاء في هذا المجال، وقد ارتبطت هذه المهنة (الصيرفة) وبيع السفاتج (الكمبيالات المالية) في العراق باليهود وبدرجة أقل بالمسيحيين، فضلاً عن أنهم كانوا يقومون بعملية إقراض لأصحاب المشاريع في بغداد لتمويل مشاريعهم، على أن تسدد أو تسترجع هذه القروض فيما بعد وبفوائد فاحشة(٥٩).

ومن الجدير بالإشارة ان عدد من الفلاحين أقدموا على ترك أراضيهم ليس بسبب وباء الطاعون والفيضان فحسب، وإنما خوفاً من عدم تمكنهم من تسديد ما بذمتهم من الرسوم التي كانت تفرض على المحاصيل الزراعية قبل جنيها، فضلاً عن عدم قدرتهم على تسديد القروض وفوائدها التي اقترضوها من مكاتب الصيرفة التي يمتلكها اليهود، ما ولد حالة من الكساد في الأسواق التجارية وبالتالي أدى إلى اضطراب السوق وأسعار المواد الغذائية وشحتها، الأمر الذي استغله بعض التجار الجشعين من خلال تفشي ظاهرة الاحتكار بغية الزيادة في الربح عن طريق رفع أسعار المواد الغذائية كان الناس بأمن الحاجة لها(٦٠).

أما الخانات الممتدة على الطريق ما بين بغداد- كربلاء- النجف، (خان الكهيا) في الجنوب من بغداد، و(خان آزاد- أحياناً يرد اسم أسد، وسعد)، و(خان الأسكندرية) وهو يتسع لألف شخص(٦١)، فضلاً عن أنها صممت بشكل هندسي مميز، وبشكل يؤدي إلى تقديم أفضل الخدمات للمسافرين وبضائعهم وحيواناتهم، وأماكن لحفظ السلع والتجارات، وبناء يقدم الخدمة لأغراض السكن والمبيت للتجار والزوار، فقد خلت هذه الخانات تماماً وأصبحت عبارة عن أماكن خاوية ومهجورة، بعد ان توقفت عمليات التبادل التجاري، فضلاً عن هجرة العديد من التجار المحليين، الأمر الذي أدى إلى كساد التجارة وانهيارها(٦٢)، بعد أن كانت حركة التصدير بشكل واسع وبمختلف المنتوجات المحلية والغلال الزراعية من الولايات العراقية إلى الهند وأوربا وبالعكس(٦٣)، الأمر الذي أدى إلى تعثر تجارة بغداد، ناهيك عن الخسائر الفادحة التي منيَّ بها التجار فأثرت سلباً على النشاط الاقتصادي في بغداد، وانعكس بعد ذلك على مدن العراق الأخرى(٦٤).

كما كان لانتشار وباء الطاعون والفيضان الأثر الكبير في توقف عملية الإنتاج الزراعي في بغداد والمدن المجاورة لها، فقد أدى إلى تلف العديد منم البساتين والمزارع بشكل كبير، الأمر الذي أدى إلى هجرة العديد من الفلاحين من مناطقهم مما أدى بالتالي إلى تدهور الإنتاج الزراعي، كما توقفت الخطط التي وضعها داود باشا للنهوض بالقطاع الزراعي ومنها توفير مياه الري وزيادة استغلال الأراضي التي

بدأت خطواتها الأولى في عهده، والتي لو قدر لها أن تستمر لكانت قد شكلت فيما بعد أحد المشاريع المهمة للنهوض بالواقع الزراعي العراقي(٦٥).

ومن الطبيعي ان تنعكس آثار الفيضان والطاعون على الإنتاج الزراعي وعلى سكان بغداد، فقد ارتفعت أسعار الحبوب التي كانت تشكل جزءاً مهماً أمن قوتهم اليومي ولارتفاع أسعارها بشكل فاحش، لم يعد بمقدور الناس شراء طعامهم(٦٦)، وقد نتج عن هذه الأوضاع شحة المواد الغذائية، وبسبب ذلك أصبحت حياة السكان أكثر مجاعة ورعباً، وتزامن ذلك مع فقدان حيوانات النقل التي وأن وجدت فأنها لا تستطيع توفير النقص الحاصل في المواد الغذائية، وفي ظل تلك الأحوال القاسية، كانت تلك السنة من السنين العجاف التي سرّت على العراق، مما جعل السكان في ضيق شديد وحالة من الهلع بسبب هذا النقص الكبير في المواد الغذائية الضرورية، حتى لم يعد في أسواق مدينة بغداد وقراها شيء من الغلة(٦٧).

ومما زاد معاناة الناس وسوء أحوالهم انهيار السدود التي أنشأها السكان بعد التحذيرات التي أطلقتها الحكومة، وبالذات البيوت القريبة من ضفاف النهر، وغمرت المياه الأماكن الواطئة، ووصلت إلى داخل المدينة بعد تدميرها مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، فضلاً عن ان انهيار أنظمة الري والقدرة على احتواء الفيضان أو السيطرة عليه أدى إلى تلف الكثير من المحاصيل الزراعية، وقد سرَّع هذا الانهيار إلى تقليص الأراضي الصالحة للزراعة بعد أن غمرتها المياه وحولتها إلى مستنقعات كبيرة، فكان من الطبيعي أن تنعكس آثارها على خزينة الدولة بسبب النقص في الرسوم والضرائب التي كانت تتقاضاها من تلك المناطق(٦٨).

ونتيجة لذلك أهملت الأراضي الريفية الواقعة حول مدينة بغداد، وسرى الإهمال إلى شبكة الأنهار والمصارف اللازمة للري والزراعة، وقد كان هذا سبباً مضافاً في تعاظم فيضان نهر دجلة، والتي أدت بالتالي إلى عزل المدن بعضها عن البعض وعن القرى وتدميرها أو هجرة سكانها تدريجياً(٦٩).

أما القطاع الصناعي فلم يكن بمعزل عن تلك المتغيرات التي أحدثها الوباء والفيضان، فقد تأثرت معظم الصناعات التي كانت أغلبها يدوية لاسيما صناعة النسيج المحلية، والتي كانت تضمن الجانب الأكبر من حاجة الأسواق المحلية، وعلى الرغم من أن بعض السلع ذات النوعية الخاصة تستورد من أوربا أو من البلدان المجاورة، إلا أن المنتجات اليدوية العراقية كانت تُصدَّر إلى بعض دول الشرق الأوسط، وبخاصة إيران(٧٠).

لذلك توقفت معظم الصناعات الحرفية بسبب هجرة أو انقراض عائلات حرفية تميزت بالمهارة والدقة في حرفها المختلفة، لاسيما صناعة السروج وأصحابها إذ كانوا يتمتعون بشهرة واسعة، فضلاً عن

الصاغة والخياطين والحدادين وصناع السيوف الذين لهم صيت ذائع وشهرتهم في صناعتهم أكثر ذيوعاً من أهل الحرف في استانبول، ولأهمية تلك الصناعات نشطت التنظيمات الحرفية في العراق منذ بداية القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وبسبب تلك الأوضاع التي مرت على العراق أضمحلت هذه الحرف وفقدت هويتها وديموتها وتلاشت مستلزمات نجاحها، إذا ما عرفنا ان معظم هذه الصناعات كان تمارس داخل البيوت التي هدمها الفيضان(٧١).

كذلك عطلت الورش الخاصة بصناعة البنادق التي أسسها داود باشا لسد حاجات الجيش، فأتلف الفيضان المعدات الخاصة بصناعة الحاجات العسكرية الضرورية التي كانت تدار من قبل خبراء أوربيين استقدمهم داود باشا لهذا الغرض، وعند تفتشي وباء الطاعون وانتشاره هاجر معظم الرعايا الأوربيين مع القنصل البريطاني متوجهين إلى البصرة هرباً من الطاعون، الأمر الذي أدى إلى توقف هذه الورش عن العمل بشكل كامل(٧٢)، بعد أن كانت تلك المعامل الخاصة بتصنيع الأسلحة تنتج في اليوم الواحد (أثنتا عشر بندقية) أصبحت جميعها عاطلة عن العمل أيضاً(٧٣).

وعلى الرغم من أن الوباء والفيضان قد أثراً بشكل كبير على كل شرائح المجتمع، إلا أننا نلاحظ أن أكثر الفئات تضرراً هي الطبقة العامة التي نمت بعد التحولات التي مرت بالمدن العراقية، الأمر الذي دفعهم للهجرة من الريف إلى المدينة (بغداد) للأسباب الاقتصادية، وأن هذه الظاهرة كانت تحصل بعد حدوث المجاعات والكوارث التي تحل بالعراق، فكان على المدن العراقية أن تقوم باستقبال هذه الأعداد الكبيرة من الفقراء والبائسين والفارين من الجوع(٧٤)، وبالرغم من كثرة المحاولات التي قام بها الولاة في فترات الحكم المختلفة من أجل منح الهجرة، إلا أنها باءت بالفشل، لذلك امتهن هؤلاء مهناً مختلفة ومعظمهم كان يعمل بأجر يومي، فهنالك الحطابون والحمالون والسقائون، فضلاً عن أن أغلبهم كان يعمل في المصانع النسيجية بعد أن ازداد الطلب على الأيدي العاملة بازدياد عدد المصانع في بغداد وباقي في مدن العراق الأخرى، لذلك كان معظم الموتى الذين قتلوا في الطاعون أو الفيضان كانوا من هذه الطبقة التي شكلت النسبة الأكبر من السكان، في حين أن الناجين من هذه الأحداث فقد تفاقمت أوضاعهم المعيشية لاسيما أن سكان مدينة بغداد هم من عانى من شحة المواد الغذائية، ومن الجدير بالذكر ان جميع أبناء هذه الطبقة كانوا يعتمدون في معيشتهم على الأجر اليومي، الذي كان لا يكفي لادخار جزء منه لاستخدامه عند الضرورة، مما جعلهم في أوضاع مأساوية خلال مدة الفيضان(٧٥).

وبناءاً على هذه المعطيات التي طرأت على الأوضاع في مدينة بغداد، فقد ظلت حالة التغيير المستمر لتناقص أعداد السكان بسبب هذه الكوارث، فنلاحظ على مر التاريخ أنه كلما تبدأ مدينة بغداد بالازدهار في تجارتها وأوضاعها المختلفة وتعيش حالة من الاستقرار والرفاهية تعقب ذلك الوباء أو

الفيضان أو الكوارث الأخرى، فتنعكس تلك الأوضاع على ثقافة وطبائع أهل بغداد بسبب هذا النقص في سكانها(٧٦).

ومن الجدير بالإشارة أن هذه المتغيرات التي طرأت على الواقع السكاني والمجتمعي في مدينة بغداد، قد أدت إلى أن تخضع المدينة للقبائل البدوية والريفية كان (رغم بعض النواحي الإيجابية القليلة) مما يعد تدهوراً خطيراً للمدينة وترديا واضحاً في أنشطتها الحضرية، فقد عانت بغداد ومدن أخرى من ضغط القبائل عليها، ولم تلق هذه القبائل تأييداً أو احتراماً من قبل تجار المدينة وسكانها، كما ان فقدان مدينة بغداد للأمن اللازم لاستمرار نشاطها الحضاري، إذ كان الاختلاف القائم بين قيم القبيلة ومُثلها وما تمثله من روح عسكرية متنقلة لا تعرف الاستقرار، وبين قيم المدينة المرتكزة على نشاطاتها التجارية والإنتاجية المستقرة، مثل فجوة اجتماعية يصعب تجاوزها إلا على حساب المدينة وثقافتها، فضلاً عن أن أغلب القوى القبلية آنذاك لم تجد حرجاً في استغلال الفرص السانحة التي مكنتها من الاستيلاء على المدن المجاورة(٧٧).

عندما داهم الطاعون والفيضان بغداد عام ١٨٣٠ دخل بعض أعراب البادية إلى مدينة بغداد واستولوا على بعض موافقها التجارية والاقتصادية، وعندما ساءت الأوضاع الأمنية فيها بعد أن طغى نهر دجلة وأحاطت مياهه ببغداد اغتنمت تلك القبائل الفرصة مستغلة الدمار الكبيرة الذي أحدثه الفيضان وما رافقه من طاعون وانعدام الأمن وشيوع الاضطراب في النظم الإدارية، فسيطرت على الكثير من المناطق في بغداد وبالذات الجانب الشرقي منها، وقد سكنوا في مساحات عشوائية وأصبحت المدن في نظر القبائل عالماً غريباً غير مألوف بالنسبة لها، مما شكلت فيما بعد تراجعاً واضحاً للمدينة في مدينة بغداد التي ظلت آثارها واضحة لحد الآن(٧٨).

وبالتالي أوقعت المجتمع البغدادي تحت وطأة تباينات متناقضة بعضها تدفعهم نحو التمسك بالقيم البدوية والأخرى تدفعهم للتمسك بالقيم الحضارية التي بدأت تنتشر فيهم(٧٩).

وعندما تراجعت سيادة المدينة وتدهورت أوضاعها بسبب الفيضان والطاعون، فقد دمرت كل البنى التحتية التي كان قد أسسها داود باشا وشرع للعمل بها، فأهملت الأراضي الريفية الواقعة حول المدن، وسرى الإهمال ليصل إلى شبكات الأنهار والمصارف اللازمة للري والزراعة، مما أدى بالتالي إلى تدهور وتعاظم أخطار فيضانات الأنهار، وحدوث المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها البعض وتدمير القرى أو هجرة سكانها منها تدريجياً لعدم توفر مستلزمات العيش المثالي الذي يطمح له السكان، بسبب الكوارث ومن ثم ليحل في بغداد الركود والخمول والانزواء(٨٠)، فأصبحت بغداد قليلة السكان والقسم الأكبر منها عبارة عن خراب شامل(٨١).

ومن خلال ما تقدم يمكن ملاحظة ان لحادثي الطاعون والفيضان الذين وقعا في بغداد كان لهما الأثر الواضح على النشاطات الاقتصادية في مدينة بغداد بمختلف قطاعاتها التي كانت في بداية نشوئها، مما أثر بالتالي على البنية السكانية والاجتماعية للمدينة لمدة طويلة من الزمن، وانعكس ذلك ايضاً على الواقع السياسي الذي اضطرب بعد هاتين الكارثتين، فضلاً عن أن للجانب الاقتصادي أثره على الواقع الأمني الذي أخذ هو الآخر بالتدهور، فنتج عنه حالة من الفوضى وانتشار اللصوص مستغلين في ذلك ظروف الولاية الصعبة بشكل لم تألفه بغداد من قبل.

الخاتمة:

نتج فيضان وطاعون بغداد عام ١٨٣٠-١٨٣١ تدهور معظم جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد أصاب الكثير من سكان بغداد وبحالة من القنوط، وبروز بعض المظاهر السلبية الدخيلة على المجتمع البغدادي، مثل أعمال السلب والنهب، فضلاً عن الآثار المروعة في هلاك ثلثي سكان بغداد، كما أنهما أخلا بالبنية الاجتماعية لسكان المدينة، لاسيما بعد أن انتقل إليها العديد من سكان الأطراف والقرى والأرياف المحيطة بها، وذلك لأن هذه المجاميع لها عاداتها وتقاليدها الخاصة بها، فقد أثرت على ثقافة سكان بغداد، وتغيرت بعض العادات والتقاليد التي أدت إلى تفكك الروابط الاجتماعية بينهم، وإلى حالة عدم الانسجام بين أبناء المجتمع نفسه بسبب تنوع الثقافات والقيم التي يقوم عليها أحياناً شكلت خطراً على البنية الاجتماعية بشكل عام، وبذلك فأن الفيضان والطاعون أدى إلى خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات الخاصة والعامة.

كما ان آثار الفيضان والطاعون كان واضحاً على الأوضاع الاقتصادية لايالة بغداد، فشكل تراجعاً كبيراً بمختلف القطاعات التجارية، وفي المقدمة منها القطاع الزراعي بسبب هجرة أعداد كبيرة من الفلاحين إلى أدنى حد، فضلاً عن توقف التجارة وحركة نقل البضائع.

هوامش البحث:

(١) قاسم الجميلي، تاريخ العراق الوبائي في العهد العثماني الأخير ١٨٥٠-١٩١٨، مراجعة: هاشم صالح التكريتي، دار دجلة للنشر، (عمان-الأردن)، ط١، ٢٠١٧، ص٢٤٩.

(2) Achronicle of The Carmelties in Persia and The Papal of The 17th and 18th Centuries, Vol.1, London, 1939, P.174.

(٣) جلال الحنفي، صور من الحياة الاجتماعية في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى ومحاورها وخطوطها العامة، مخطوط محفوظ في منزل المؤلف، بغداد، ص٢-٤.

(٤) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، دار دجلة والفرات للنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص٣٠٤.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٢، شركة الوراق للنشر، بغداد، ط٢، ٢٠٠٠، بغداد، ص٨٧.

(٦) سليم وفيق الراوي، بغداد في رحلات الأجانب، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد (٢٤)، سنة ١٩٨٠، ص١٨٥-١٨٦.

(٧) جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦، ج١، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٦٨، ص١٩٢؛ علاء موسى كاظم نورس، أحوال العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دراسة لمختارات في كتب الرحالة الأجانب، سلسلة الموسوعة التاريخية المسيرة، بغداد، ط١، ١٩٩٥، ص٣٢-٤١.

(٨) جاسم محمد هادي القيسي، أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية١٨٣١-١٨٦٩/دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٠٤.

(٩) طارق نافع الحمداني، بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد ومصادر وثائقها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحث من كتاب ملامح سياسية وحضارية من تاريخ العراق الحديث والمعاصر، الدار العربية للموسوعات، بغداد، ط١، ١٩٨٩، ص٣١-٤٤.

(١٠) كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة: محمود حسين الأمين، بغداد، ١٩٦٥، ص٢٩..

(١١) عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢، ص٦٧-٦٨.

(١٢) المصدر نفسه، ص٧٩-٨١.

(١٣) رشيد الرماحي، عندما كانت مياه الآبار في بيوتنا، مجلة الف باء، العدد (٥٧٠)، ١٩٧٩، ص٢٤-٤٥.

(١٤) عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، مجلة المورد، مج٨، العدد (٤)، ١٩٧٩، ص١٧٨.

(١٥) جيمس ريموند ولستد، رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، ط١، ١٩٨٤، ص٧٤-٨١؛ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، ترجمة/ موسى كاظم نورس، منشورات الشريف الرضي، طهران، ط١، ١٩٧٢، ص٢٩٣.

(١٦) ريچارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل ومصطفى جواد، مطبعة شفيق للنشر، بغداد، ط١، ١٩٦٢، ص١٤٩-١٥٠.

(١٧) جبرائل يوحنا أصغر، مختصر المستفاد في تاريخ بغداد، مخطوطة برقم (١١٠٤)، دار المخطوطات العراقية، الورقة ١٠٥.

(١٨) جعفر الخياط، صور، من تاريخ العراق في العصور المظلمة، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط١، ١٩٧١، ص٢٠٢.

(١٩) هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج٢، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، مصر- القاهرة، ١٩٧٠، ص١١٤.

(٢٠) رحلة اوليفيه إلى العراق ١٧٩٤-١٧٩٦، ترجمة: يوسف حبي، بغداد، ١٩٨٨، ص٨٦-٩٠.

(٢١) عبد العزيز الدوري، بغداد (كتب دائرة المعارف الإسلامية)، دار الكتاب اللبناني للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١٤٨؛ أكرم فاضل، بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين، مجلة المورد، العدد (٧)، ١٩٧٩، ص٤٨٣.

(٢٢) مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، مطبعة الرابطة للنشر، بغداد، ١٩٦٥، ص٤٧-٤٩.

(٢٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ص٢٨٨.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٩١.

(٢٥) جعفر الخياط، الطواعين في بغداد، جريدة البلد، العدد (١٨٧)، ١٤ نيسان ١٩٦٤، ص٣.

(٢٦) علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق١٧٥٠-١٨٣١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥، ص٢٥٨؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص٢٩١.

(٢٧) الوقف: لغة معناه الحبس والمنع، فيقال وقفت بمعنى حبست، أما اصطلاحاً فهو حبس العين عن تمليكها والتصدق بالمنفعة على مصرفاً مباح، والعين أما تكون داراً أو بستاناً أو نقداً. عبد الملك عبد الرحمن السعدي، الوقف وأثره في التحقيق، بغداد، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٣-٢٤.

(٢٨) محمد سعيد الراوي، خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ٢٠٠٦، ص١٤٩-١٥٠.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٣٠) حامد البازي، البصرة في الفترة المظلمة، بغداد، ١٩٦٩، ص٨٢.

(٣١) وميض سرحان ذياب عبد الواحد، موجات الأوبئة والقحط والكوارث الطبيعية في العراق١٨٣٠-١٩١٧، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٠، ص١٦٥.

(٣٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٢، مطبعة شفيق للنشر، بغداد، ١٩٦٨، ص١٨١.

(٣٣) حامد البازي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٣٤) وبسبب المأساة والكوارث التي خلفها فيضان وطاعون بغداد ١٨٣٠-١٨٣١، سعى الكثير من أهل الخير والميسورين من الطوائف الدينية الأخرى إلى تأسيس جمعيات خيرية فيما بعد هدفها تقديم الدعم والمعونة للفقراء والمحتاجين، فأنشأت الطائفة اليهودية جمعية باسم (Shame Miswa) التي افتتحت في بغداد سنة ١٨٦٨ هدفها تنظيم وتسهيل العمل الخيري، فضلاً عن قيام الطريك إيليا الثاني عشر بتأسيس شركة سنة ١٨٨٠ أسماها شركة الرحمة، هدفها جمع التبرعات من أهل الخير وتوزيعها على المحتاجين والفقراء، وجمعيات أخرى. فيصل السامر، اليهود العراقيون- لمحات تاريخية، ندوة مركز الدراسات الفلسطينية، مجلة الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، أيار- حزيران، ١٩٧٧، ص١٠٨.

(٣٥) إبراهيم خليل أحمد، النشاطات الطبية والخدمات الصحية في العراق ١٢٥٨-١٩٢١، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (١٦)، ١٩٨٦، ص٢٥.

(٣٦) وميض سرحان ذياب، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٣٨) علي رضا باشا اللاظ: قائد عسكري ورجل دولة عثماني، ولد في طرابزون، تولى العديد من المناصب العسكرية والوظائف الإدارية في الدولة العثمانية، فقد عمل في شبابه موظفاً في كمرك أزمير ومتسلماً في مغنيسا وعمل كتخذا مع والي حلب، ثم أصبح والياً على العديد من الولايات العثمانية، ومنها حلب، بغداد وديار بكر، وجدة، توفي في الشام عام ١٨٤٥. لمزيد من التفاصيل ينظر: رنا عبد الجبار حسين الزهيري، إيالة بغداد في عهد الوالي علي رضا اللاظ ١٨٣١-١٨٤٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥، ص٢٥-٢٩.

(٣٩) جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في الصور المظلمة، ص٢٩٤؛ وميض سرحان ذياب، المصدر السابق، ص٧٩.

(٤٠) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥، ص٣٥٥.

(٤١) قاسم الجميلي، المصدر السابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٤٢) جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد ١٨٣٨، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكتب العلمية للنشر، بغداد، ط٢، ٢٠١٣، ص١٠٥-١٠٦.

(٤٣) طارق نافع الحمداني، المدن العراقية كمراكز للنشاط الاقتصادي في العهود المتأخرة ١٥٣٤-١٩١٤، من كتاب ملامح سياسية وحضارية، ص١٤٠.

(٤٤) جيمس بلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٢.

(٤٥) محمد الجمال، العراق العثماني في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠-١٩١٤، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة، العدد (٣٦)، بغداد، ٢٠١٠، ص١٥٦-١٥٨.

(٤٦) رحلة بكنكهام، وصف بغداد، بغداد بأقلام رحالة، ترجمة: محمد علي حلاوي، دار الوراق للنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٧، ص١٢١-١٢٢.

(٤٧) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ط٢، ٢٠١٣، ص٢٨٥.

(٤٨) بطرس نيكي، تجارة ولايات الشام وولايات العراق والجزيرة والمغرب العربيين في نهاية العهد العثماني (١٨٢٠-١٩١٠)، الحياة الاقتصادية للولايات المتحدة العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ج١، مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦، ص٤٠٨-٤٠٩.

(٤٩) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، ص٢٨٩.

(٥٠) عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في أنهار العراق (١٦٠٠-١٩١٤)، دراسة وثائقية للتطورات التي أدت إلى احتكار بريطانيا للملاحة في العراق، القاهرة، ١٩٦٨، ص٧٢-٧٥.

(٥١) وادي العطية، تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً، النجف، ١٩٥٤، ص٥٤؛ كليمان هيوار، خطط بغداد، ترجمه وعلق عليه: ناجي معروف، مطبعة العاني للنشر، بغداد، ١٩٦١، ص٣٤.

(٥٢) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، ص٢٩٣.

(٥٣) جيمس بلي فريزر، المصدر السابق، ص١٩٠-١٩١.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٥٥) كامل علاوي الفتلاوي وحسن لطيف الزبيدي، العراق تاريخ اقتصادي، الحقبة العثمانية ١٨٣١-١٩١٤، ج٢، مراجعة: عماد عبد اللطيف سالم، بيت الحكمة للنشر، بغداد، ٢٠١٢، ص٢١-٢٢.

(٥٦) جون آشر، مشاهدات آشر في العراق، ترجمة: جعفر الخياط، مجلة سومر، المجلد٢١، العدد١-٢، ١٩٦٥، ص١٠٣-١٠٥.

(٥٧) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص٧٨.

(٥٨) ج.ج لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج١، ترجمة: مكتب أمير قطر، (الدوحة- قطر)، (د.ت)، ص٢٥٢.

(٥٩) يوسف رزق الله غنمية، تجارة العراق قديماً وحديثاً، مطبعة العراق للنشر، بغداد، ١٩٣٢، ص٧٤.

(٦٠) حسين محمد القهواتي، الحياة الاقتصادية في بغداد من القرن التاسع عشر حتى نهاية العصر العثماني، بحث من كتاب حضارة العراق، ج١٠، بغداد، ١٩٨٥، ص١٠٤-١٠٨.

(٦١) قصة الخانات على طريق بغداد- كربلاء- النجف، جريدة الجمهورية، العدد (١١)، ٥ آ ١٩٦٣، ص٧؛ فكرة الطائي، خانات بغداد، مجلة الرافدين، العدد (١٧)، ١٩٩٢، ص٣٠.

(٦٢) جيمس بنكهام، المصدر السابق، ص٣٢٥؛ رحلة نيبور، المصدر السابق، ص١٠٧.

(٦٣) مظفر حسين جميل، سياسة العراق التجارية، مطبعة النهضة للنشر، القاهرة، ١٩٤٩، ص٥٣-٥٥.

(٦٤) بطرس نيكى، المصدر السابق، ص٤١٢.

(٦٥) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، ص٢٨٦.

(٦٦) آزاد جلال شريف، فيضانات نهر دجلة الاستثنائية وأثرها في الزراعة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافية، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص٢٣-٢٤.

(67) "The Penny Magazine of the Society For The Diffasion of Usfeul Knowledge", No.106, (London, 30 November, 1833), P.460;

نقلاً عن: قاسم الجميلي، المصدر السابق، ص٥١

(٦٨) آزاد جلال شريف، المصدر السابق، ص٢٥.

(٦٩) عماد عبد السلام رؤوف، المدينة العراقية، بحث من كتاب حضارة، ج١٠، بغداد، ١٩٨٥، ص١٦٥.

(٧٠) محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، ١٩٦٥، ص٣٨١.

(٧١) أوليا جلبي، مقتطفات من مشاهدات أوليا جلبي في بغداد، ترجمة: حسين علي الداقوقي، مجلة الآخاء، العدد٥-٦، السنة ١٢، أيلول- تشرين الأول ١٩٧٢، ص٥.

(٧٢) يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، منشورات دار البصري للنشر، بغداد، ط١، ١٩٦٧، ص٣٧-٣٨.

(٧٣) سليمان فائق، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، مطبعة المعارف للنشر، بغداد، ١٩٦٢، ص٣٣.

(٧٤) ياسين العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، النجف، ١٩٧٤، ص٧٣.

(٧٥) جاسم محمد هادي القيسي، المصدر السابق، ص١٢٣؛ فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، الحياة الاجتماعية في بغداد (١٨٣١-١٩١٧)، أطروحة دكتور غير منشورة، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٢، ص١١٥.

(٧٦) عباس فاضل السعدي، سكان مدينة بغداد عبر مراحلها الزمنية، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة، العدد (٣٤)، بغداد، ٢٠١٥، ص٢٤.

(٧٧) سعاد هادي العمري، بغداد كما وصفها السياح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة، بغداد، ١٩٥٤، ص٣١؛ عماد عبد السلام رؤوف، المدينة العراقية، ص١٦٤-١٦٥.

(٧٨) رزوق عيسى، نظرة في لغة والعامية، مجلة لغة العرب، ج٢، شعبان -١٣٤٩هـ/آب ١٩١١، ص٦٩.

(٧٩) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص٢٦٠.

(٨٠) جيمس ريموند ولستدر، المصدر السابق، ص٣٣.

(٨١) ريچارد كوك، المصدر السابق، ص١٥٠.

قائمة المصادر

أولاً- المخطوطات:

- جلال الحنفي، صور من الحياة الاجتماعية في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى ومحاورها وخطوطها العامة، مخطوط محفوظ في منزل المؤلف ببغداد.
- جبرائيل يوحنا أصغر، مختصر المستفاد في تاريخ بغداد، مخطوطة رقم (١١٠٤)، دار المخطوطات العراقية، الورقة (١٠٥).

ثانياً:

أ-الكتب العربية والمعربة:

- جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط١، ١٩٧١.
- جيمس بلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد ١٨٣٨، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكتب العالمية للنشر، بغداد، ط٢، ٢٠١٣.
- جيمس ريموند ولستد، رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، ط١، ١٩٨٤.

- جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦، ج١، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٦٨.
- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، ترجمة: مكتب أمير قطر، الدوحة، (د.ت).
- حامد البازي، البصرة في الفترة المظلمة، بغداد، ١٩٦٩.
- رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، ترجمة: موسى كاظم نورس، منشورات الشريف الرضي، طهران، ط١، ١٩٧٢.
- رحلة أوليفيه إلى العراق ١٧٩٤-١٧٩٦، ترجمة: يوسف حبي، بغداد، ١٩٨٨.
- رحلة بكنغهام، وصف بغداد، بغداد بأقلام رحالة، ترجمة: محمد علي علاوي، دار الوراق للنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٧.
- ريچارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل ومصطفى جواد، مطبعة شفيق للنشر، بغداد، ط١، ١٩٦٢.
- سعاد هادي العمري، بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة بغداد، ١٩٥٤.
- سليمان فائق، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، مطبعة المعارف للنشر، بغداد، ١٩٦٢.
- طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية وحضارية من تاريخ العراق الحديث والمعاصر، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥.
- عبد العزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٢، مطبعة شفيق للنشر، بغداد، ١٩٦٨.
- عبد العزيز الدوري، بغداد (كتب دائرة المعارف الإسلامية)، دار الكتاب اللبناني للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ط٢، ٢٠١٣.

- ـــ، المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠-١٩١٤ دراسة وثائقية للتطورات التي أدت إلى احتكار بريطانيا الملاحة في العراق، القاهرة، ١٩٦٨.
- عبد الملك عبد الرحمن السعدي، الوقف وأثره في التنمية، بغداد، ط١، ٢٠٠٠.
- علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١، شركة الوراق للنشر، بغداد، ط٢، ٢٠٠٠.
- ـ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، دار دجلة والفرات للنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣
- عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢
- علاء موسى كاظم نورس، أحوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الأجانب، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة، بغداد، ط١، ١٩٩٥.
- ـــ، حكم المماليك في العراق١٧٥٠-١٨٣١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥.
- قاسم الجميلي، تاريخ العراق الوبائي في العهد الأخير ١٨٥٠-١٩١٨، مراجعة: هاشم صالح التكريتي، دار دجلة للنشر، (عمان- الأردن)، ط١، ٢٠١٧.
- كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة: محمود حسين الأمين، بغداد، ١٩٦٥.
- كامل علاوي الفتلاوي وحسن لطيف الزبيدي، العراق تاريخ اقتصادي، الحقبة العثمانية ١٨٣١-١٩١٤، ج٢، مراجعة: عماد عبد اللطيف سالم، بيت الحكمة للنشر، بغداد، ٢٠١٣.
- كليمان هيوا، خطط بغداد، ترجمه وعلق عليه: ناجي معروف، مطبعة العاني للنشر، بغداد ١٩٦١.
- مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، ج١٠، بغداد، ١٩٨٥.
- محمد سعيد الراوي، خير الزاد في تاريخ مساجد بغداد، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ٢٠٠٦.

- محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المكتبة العصرية للنشر، بغداد، ١٩٦٥.
- مظفر حسين جميل، سياسة العراق التجارية، مطبعة النهضة للنشر، القاهرة، ١٩٤٩.
- مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، مطبعة الرابطة للنشر، بغداد، ١٩٦٥.
- هاملتون حب وهارون بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج٢، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٠.
- وادي العطية، تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً، النجف، ١٩٥٤.
- ياسين العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، النجف، ١٩٧٤.
- يوسف عز الدين، مخطوطة شعر الأخرس، شاعر العراق في القرن التاسع عشر، مطبعة العاني للنشر، بغداد، ١٩٦٣.
- يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، مطبعة العراق للنشر، بغداد، ١٩٣٢.

ثانياً- الكتب باللغة الإنكليزية:

- A chronide of The Cormelties in Persia and The Papal of The 17th and 18th Centuries, Vol.1, London, 1939.

ثالثاً- الرسائل والأطاريح الجامعية:

- أزاد جلال شريف، فيضانات نهر دجلة الاستثنائية وآثارها في الزراعة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد، ١٩٨٩.
- جاسم محمد هادي القيسي، أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣١-١٨٦٩ دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥
- رنا عبد الجبار حسين الزهيري، إيالة بغداد في عهد الوالي علي رضا اللاظ ١٨٣١-١٨٤٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥.
- فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، الحياة الاجتماعية في بغداد (١٨٣١-١٩١٧)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٢.

- وميض سرحان ذياب عبد الواحد، موجات الأوبئة والقحط والكوارث الطبيعية في العراق١٨٣٠-١٩١٧، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٠.

رابعاً- البحوث والدراسات العربية والأجنبية:

أ- باللغة العربية والمترجمة

- إبراهيم خليل أحمد، النشاطات الطبية والخدمية الصحية في العراق ١٢٥٨-١٩٢١، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد١٦، ١٩٨٦.
- أكرم فاضل، بغداد في آثار المستشرقين، مجلة المورد، العدد (٧)، ١٩٧٩.
- أوليا جلبي، مقتطفات من مشاهدات أوليا جلبي في بغداد، ترجمة: حسين علي الداقوقي، مجلة الآخاء، العدد ٥-٦، السنة (١٢)، أيلول- تشرين الأول ١٩٧٢.
- بطرس نيكي، تجارة ولايات برّ الشام وولايات العراق والجزيرة العربيين في نهاية العهد العثماني (١٨٢٠-١٩١٠)، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ج١، مركز الدراسات والبحوث العربية في العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦.
- جون آشر، مشاهدات جون آشر في العراق، ترجمة: جعفر الخياط، مجلة سومر، مج٢١، العدد(١-٢)، ١٩٦٥.
- رشيد الرماحي، عندما كانت مياه الآبار في بيوتنا، مجلة ألف باء، العدد (٥٧٠)، بغداد، ١٩٧٩.
- رزوق عيسى، نظرة في لغة بغداد والعامية، مجلة لغة العرب، ج٢، شعبان ١٣٠٩هـ- آب ١٩١١.
- فيصل السامر، اليهود العراقيون، لمحات تاريخية، ندوة مركز الدراسات الفلسطينية، مجلة الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، أيار- حزيران، ١٩٧٧.
- سليم وفيق الراوي، بغداد في رحلات الأجانب، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد (٢٤)، بغداد، ١٩٨٠.

- عباس فاضل السعدي، سكان مدينة بغداد عبر مراحلها الزمنية، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة، العغدد (٣٤)، بغداد، ٢٠١٥.
- عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في العراق، مجلة المورد، مج٨، العدد الرابع، ١٩٧٩.
- محمد الجمال، العراق العثماني في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠-١٩١٤، مجلة دراسات تاريخية، دار الحكمة، العدد (٣٦)، بغداد، ٢٠١٠.

ب-الإنكليزية:

- "The Panny Magazin of The Society For The Diffusion of Useful Knowledge", No.106, (London, 30 November, 1833.

خامساً: الصحف:

- البلد لسنة ١٩٦٤.
- الجمهورية، لسنة ١٩٦٣.